الأمر راجع إلى ضغط فكري جماعي يخضع له المؤلف، وربما يتم ذلك بطريقة لا واعية[119]. وجانب آخر شديد الأهمية في نظرنا، وهو أن الرواية كما يقول الناقد نفسه «تحتوي على شوائب إديولوجية في وعي شخصياتها، وفي وعي كاتبها، لكن هناك سمة مُرَجِّحة لهذا الاتجاه، أو ذاك، هذه السمة المرجِّحة لا تعطي نفسها مباشرة، فثمة عملية تحليل طويلة للوصول إليها، أي للوصول إلى الإديولوجية الحقيقية للعمل أو العالم الروائي، للوصول إلى ما تقوله الرواية، فمما لا شك فيه أن كل رواية تقول شيئاً. وليس تلاعباً بالألفاظ أن نقول إن الرواية التي تدعي أنها لا تقول شيئاً، إنما تقول بذلك قولها المحدد». (ص: 109 - 110).

ونستطيع أن نستخرج من هذه الفقرة الخطوات العملية التي يفترض أن يجريها الناقد إذا هو أراد أن يحقق الأهداف التي رسمها لدراسته في المدخل العام (وأهمها دراسة العلاقة بين المثقفين العرب، وواقعهم من خلال الجنس الروائي)، هذه الخطوات هي:

- النظر إلى الرواية باعتبارها شبكة من العلاقات، أي كبنية إديولوجية عامة تحتوي على بنى صغيرة متداخلة.
- استخراج البنية الإديولوجية العامة ويقتضي:

ـ التمييز بين وعي الشخصيات، ووعي الكاتب.

تنقية كل الإديولوجيات الموجودة في الرواية من الشوائب العالقة بها.

ـ ضبط السمة المُرجِّحة أي الإديولوجيا الغالبة في النص الروائي من أجل الوصول إلى تحديد الإديولوجيا العامة، أي موقف الرواية، أو ما تريد أن تقوله.

والواقع أن جهازاً نظرياً من هذا النوع يمثل درجة عالية من درجات التطور النظري الحاصل في مسار المنهج الاجتماعي الجدلي. ولا نجد أفكاراً مثل هذه إلا عند المتأخرين من نقاد هذا المنهج، أمثال «باختين وبيير زيما، وميشال زرافا» ممن أشرنا إليهم في المدخل النظري العام لهذا الفصل. ولا نستطيع أن نؤكد استفادة الناقد محمد كامل الخطيب من هؤلاء النقاد، لأنه لم ترد أية إحالة مرجعية على كتاب أو مقال لأحدهم، والمُرجَّح أن يكون قد استفاد من بعض المقالات العربية لنقاد آخرين اتصلوا بدراسات حديثة تسير في هذا الاتجاه أمثال «يمنى العيد» بصورة خاصة.

هل استطاع الناقد أن يُخصب جهازه النظري المعروض في نهاية الكتاب من خلال تحليل الأعمال الروائية التي درسها؟ سنجيب عن هذا السؤال عند الانتقال إلى الكلام عن

---

(119) انظر ما قلناه عن غولدمان في الجزء الثالث من القسم الأول من كتابنا هذا.